138959 ـ هل تترك السنة البعدية للمغرب من أجل الدرس ؟

السؤال

قد شاع بين طلبة العلم أن المدرس حين يدرس بعد المغرب يترك المدرس والطلبة صلاة سنة المغرب ، محتجين بأن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة ، فهل هذا المسلك صحيح أم خطأ ؟ أفيدونا بارك الله فيكم ، ونفع بكم .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

المسلك الصحيح لطالب العلم هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم العلماء من بعدهم إلى يومنا هذا : هديهم الدائم ، وصفتهم التي لا يتحولون عنها : الحرص على النوافل ، والتمسك بالفضائل ، والالتزام بسنة خير المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هم أولى من قام بذلك ، وأوجب من أمر بذلك ، لما هم فيه من انشغال بتعلم سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلم فضائل الشريعة ، فالجدير بطالب العلم أن يعمل بما علم ، وأن يكون مقدم الناس إلى الطاعات والعبادات .

ولو رحنا نسوق شيئا من حرص العلماء على العبادات ، وعلو همتهم في الالتزام بها لطال بنا المقام كثيرا .

وإذا كان الإمام أحمد رحمه الله قد أنكر على أحد طلبة العلم الذين باتوا عنده ولم يصل قيام الليل ، فقال له : ما سمعت بصاحب حديث لا يقوم بالليل . " الآداب الشرعية " (2/169) فكيف إذن نسمع اليوم بطالب حديث لا يحافظ على الرواتب .

ولو جرى طالب العلم وراء فهمه الخاطئ لقول العلماء إن طلب العلم خير من نوافل العبادات، لما حافظ على عبادة ، بل لَتَرَك الصيام المؤكد ، وجف لسانه من ذكر الله ، ولما سافر لعمرة ولا تعبد بمعروف للناس : كل ذلك بدعوى انشغاله بالحفظ والدرس والطلب .

فليحذر من كان هذا حاله من خطوات الشيطان ، فهو – أعاذنا الله منه – حريص على إفساد قلب طالب العلم ، وإشغاله بالمسائل ، من غير عمل بها ، ولا دعوة إليها .

قال الخطيب البغدادي رحمه الله:

" ثم إني موصيك ـ يا طالب العلم ـ بإخلاص النية بطلبه ، وإجهاد النفس على العمل بموجبه ، فإن العلم شجرة ، والعمل ثمرة ، وليس يُعد عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً ، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشاً من العلم ، ولا تأنس بالعلم ما كنت

مقصراً في العمل ، ولكن اجمع بينهما ، وإن قل نصيبك منهما " انتهى باختصار.

" اقتضاء العلم العمل " (ص/14)

بل كان بعض السلف لا يحب لطالب العلم أن يشتغل في طلبه إلا بالعلم الذي يحتاجه ليعمل به في يومه وليلته ، وأما فضول العلم مما لا عمل فيه فكانوا ينهون عنه .

عن ابن وهب قال : قيل لمالك : ما تقول في طلب العلم ؟

قال : حسن جميل ، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي، فالزمه .

" سير أعلام النبلاء " (8/97)

وقد كان علماؤنا يدركون أن طلب العلم خير من نوافل العبادات ، ولكنهم يقررون أيضا أنه لا تعارض بينهما ، وأن طالب العلم إن لم يكن له نصيب وافر من نوافل العبادات ، وخاصة السنن الرواتب ، فذلك دليل على عدم إخلاصه ، وعلى سوء فهمه ، وتلبيس الشيطان عليه .

يقول الإمام الذهبي رحمه الله :

" هذه مسألة مختلف فيها : هل طلب العلم أفضل ، أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر ؟

فأما من كان مخلصا لله في طلب العلم ، وذهنه جيد ، فالعلم أولى ، ولكن مع حظ من صلاة وتعبد ، فإن رأيته مجدا في طلب العلم ، لا حظ له في القربات ، فهذا كسلان مهين ، وليس هو بصادق في حسن نيته .

وأما من كان طلبه الحديث والفقه غية ومحبة نفسانية ، فالعبادة في حقه أفضل ، بل ما بينهما أفعل تفضيل ، وهذا تقسيم في الجملة ، فقلَّ ـ والله ـ من رأيته مخلصا في طلب العلم .

دعنا من هذ كله فليس طلب الحديث اليوم على الوضع المتعارف من حيز طلب العلم ، بل اصطلاح وطلب أسانيد عالية ، وأخذ عن شيخ لا يعي ، وتسميع لطفل يلعب ولا يفهم ، أو لرضيع يبكي ، أو لفقيه يتحدث مع حدث ، أو آخر ينسخ .

وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنعاس ، والقارئ إن كان له مشاركة فليس عنده من الفضيلة أكثر من قراءة ما في الجزء ، سواء تصحف عليه الاسم ، أو اختبط المتن ، أو كان من الموضوعات .

فالعلم عن هؤلاء بمعزل ، والعمل لا أكاد أراه ، بل أرى أمورا سيئة . نسأل الله العفو " انتهى.

" سير أعلام النبلاء " (7/167)

ونحن نخشى والله أن يكون حال كثير من طلبة العلم في هذا الزمان ، كحال أولئك الذين نعى عليهم الإمام الذهبي رحمه الله انشغالهم بصورة طلب العلم عن العمل بالمضمون .

ثم ننقل لك ههنا نصيحة مطولة لابن الحاج المالكي ، يوصي فيها طالب العلم بالمحافظة على أوراد من العبادات ، وينهاه عن تركها والانشغال بالعلم عنها ، فهي حظه ونصيبه من علمه كله .

يقول رحمه الله :

" ينبغي له – أي لطالب العلم ـ أن لا يخلي نفسه من العبادات , وأن يكون له ورد من كل شيء منها ، إذ إنها سبب الإعانة على ما أخذ بسبيله ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

(واستعينوا بالغدوة والروحة , وشيء من الدلجة) – رواه البخاري (39)، وانظر شرحه في جواب رقم: (70314) ـ وما يستعان به لا يترك .

وقد كان بنو إسرائيل إذا أراد أحدهم أن يتعلم العلم انقطع للعبادة أربعين سنة حتى يصفو بها قلبه , وينشرح صدره , فحينئذ يأخذ في تعلم العلم , وذلك لطول أعمارهم , وأما هذه الأمة فقد قال مالك رحمه الله : أدركت الناس , وهم يتعلمون العلم إلى أن يصل أحدهم أربعين سنة فينقطع للعبادة , ويطوي الفراش انتهى .

ومعنى طي الفراش مثل ما كان عليه الصلاة والسلام يفعل في العشر الأواخر من شهر رمضان , وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطوي فراشه , ويشد مئزره , ويوقظ أهله , ويقوم الليل كله .

وإذا كان ذلك كذلك فيحتاج في أول طلبه العلم أن يمزجه بالتعبد , إذ إنه ليس ثم عمر طويل في الغالب في هذا الزمان حتى يترك له برهة منه ، فيخشى عليه أن يموت وهو في السبب قبل وصوله للمقصود .

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : تعلموا ما شئتم أن تتعلموا ، فلن يأجركم الله عليه حتى تعملوا .

ولأن العلم كالشجرة , والتعبد كالثمرة , فإذا كانت الشجرة لا ثمر لها فليس لها فائدة كلية , وإن كانت حسنة المنظر ناعمة , وقد ينتفع بها للظل وغيره , ولكن الذي عليه المعول قد عدم منها .

وليحذر أن يتكلف من العمل ما عليه فيه مشقة , أو يخل باشتغاله بالعلم , إذ أن اشتغاله بالعلم أفضل كما تقدم , وهذا باب كثيرا ما يدخل منه الشيطان على المشتغلين بالعلم ؛ إذا عجز عن تركهم له ، فيأمرهم بكثرة الأوراد حتى ينقص اشتغالهم ; لأن العلم هو العدة التي يُتقَّى بها , ويُحذر منه بها ، فإذا عجز عن الترك رجع إلى باب النقص , وهو باب قد يغمض على كثير من

طلبة العلم ; لأنه باب خير , وعادة الشيطان لا يأمر بخير ، فيلتبس الأمر على الطالب فيخل بحاله ...

وإذا كان ذلك كذلك فينبغي له أن يشد يده على مداومته على فعل السنن والرواتب وما كان منها تبعا للفرض قبله أو بعده .

وهذا كله بعد تحصيل الفرائض , وكذلك قضاء الفوائت إن كانت عليه ; لأنه لا يفعل السنن وعليه شيء من ذلك .

وكذلك لا يخلي نفسه من ركوع الضحى ، لقول عائشة رضي الله عنها : لو نشر لي أبواي ما تركتها , ومعناه لو أحييا لي وقاما من قبريهما ما اشتغلت بهما عنها .

وكذلك يحافظ على قيام الليل , ولا يخلي نفسه منه , وهو خمس تسليمات غير الوتر , ويقرأ فيها بما خف من القرآن يكون له في تلك الركعات حزب معلوم ، من جزئين إلى ثلاثة ; لأن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل كما جاء في الحديث ، وفي قيام الليل من الفوائد جملة , فلا ينبغي لطالب العلم أن يفوته منها شيء

ولعلك تقول : إن طالب العلم إن فعل ما ذكرتموه تعطلت عليه وظائفه من الدرس والمطالعة والبحث ؟

فالجواب : أن نفحة من هذه النفحات تعود على طالب العلم بالبركات , والأنوار , والتحف ما قد يعجز الواصف عن وصفه , وببركة ذلك يحصل له أضعاف ذلك فيما بعد , مع أن هذا أمر عزيز قل أن يقع إلا للمعتني به , والعلم والعمل إنما هما وسيلتان لمثل هذه النفحات .

وينبغي له أن يحافظ على ورد الصوم , ولا ينبغي له أن يتعلل بأنه مشغول عنه بطلب العلم , إذ صيام ثلاثة أيام في الشهر ليس فيها كبير مشقة في الغالب ، سيما على ما كان يصومها مالك رحمه الله , فإنه كان يفطر تسعة أيام , ويصوم عاشرها , وهذا كما تقدم في صلاة الليل فإن وجد النشاط والقوة على أكثر من ذلك بادر إليه مع عدم وقوع الخلل فيما هو بسبيله .

فإن ادعى أنه يعجز عن صوم ثلاثة أيام في الشهر مع طلب العلم فينبغي لهذا أن يترك طلب العلم في تلك الثلاثة , ويصومها , لئلا تفوته هذه الفضيلة العظمى .

ثم كذلك يكون حاله في جميع الأعمال لا يخلي نفسه من شيء منها كما تقدم ، ويكون الغالب عليه اشتغاله بالدرس , والمطالعة , والتفهم , والبحث مع الإخوان الذين يرتجى النفع بهم , ولقاء مشايخ العلم الذين جعلهم الله سببا للفتح والخير , ويواظب على ذلك " انتهى باختصار.

" المدخل " (2/132-139)

وهذا كلام غاية في النفاسة ، ما أشد حاجتنا للعمل به .

وبناء عليه : فالنصيحة لهؤلاء أن يبدؤوا أولا بصلاة سنة المغرب ، قبل اشتغالهم بالدرس ، ثم ينتقل الجميع إلى الدرس ، فيجمعوا بين الخيرين ، ولا يفوتهم ، إن شاء الله ، شيء مما هم بسبيله من طلب العلم ، ويكون أرفق بمن بعد منزله ، أو صلى في مسجد آخر ، أن يدرك درس العلم من أوله .

والله المستعان .